مصر تحت الحكم الروماني

وقعت مصر تحت الحكم الروماني عقب معركة أكتيوم البحرية عام 31 قبل الميلاد وانتحار الملكة كليوباترا السابعة آخر الملوك البطلمية ، ومنذ ذلك التاريخ تحولت مصر تحت الحكم الروماني تحت قيادة أوكتافيوس عام 30 قبل الميلاد ، ولكن سرعان ما أعلن أوكتافيوس نفسه امبراطور عام 27 قبل الميلاد وأطلق عليه لقب أغسطس ، حتى بات يعرف بالامبراطور أغسطس ، وتحولت الجمهورية الرومانية إلي إمبراطورية وبقيت علي هذه الحال إلي أن سقطت تحت وطأة هجمات الجرمان الذين استولوا علي روما في أواخر القرن الرابع الميلادي .

أما بخصوص مصر ، فقد أبقى الرومان علي معظم المؤسسات الادارية والتقاليد الاجتماعية والحياة الدينية كما هي ولم يطرأ عليها متغيرات كبيرة ، إلا فيما ندر وفقاً للمصالح الرومانية ، وهذا ما سوف نتحدث عنه .

أولاً : النظام السياسي

تحولت مصر إلي ولاية رومانية في عام 30 قبل الميلاد ، حيث أصبحت تابعة إلي الامبراطورية الرومانية التي تحكم ولاياتها من روما ، وبالتالي انتقل مركز الحكم من مصر إلي روما وأصبح يحكم مصر والي روماني ، وكان النظام السياسي في روما يقضي بأن يحكم مصر قنصل سابق أو برايتور سابق ، ولكن نظراً لأهمية مصر الاقتصادية ، فقد قرر الاميراطور أن يكون والي مصر يتبعه مباشرة ، ويقوم هو بتعينه ولا يأخذ أوامره إلا من الامبراطور مباشرة ، وكان يطلق علي الوالي لقب برايفيكتوس ، يحكم مصر لمدة عام واحد فقط ولا تجدد إلا بأمر من الإمبراطور ، وقد علمنا من بعض الوثائق البردية أن بعض الولاة حكموا مصر مدة ثلاث سنوات وأحياناً أخرى أربعة أو خمسة ، ولكن مثل هذه الحالات كانت نادرة جداً طبقاً لمقتضيات الظروف وأداء الوالي ورضى الامبراطور .

ابقى اغسطس علي أقسام مصر الادارية بمديرياتها الثلاثين ، وكان علي رأس كل مديرية حاكم يطلق عليه (استراتيجوس) ، واقتصرت اختصاصاته علي السلطة الادارية والمدنية ، حيث اعتبر كل استراتيجوس هو نائب الوالي في المديرية .

ثانياً : طبقات المجتمع

كان البناء الاجتماعي والسياسي في مصر يشكل علي هيئة شكل هرمي ، علي رأسه الرومان ، وهم الأقلية ، ثم الطبقة الوسطى وهم الإغريق سكان المدن الأربعة مع اليهود ، ثم المصريين .

1: الرومان

تمتع الرومان داخل مصر بكافة الامتيازات المالية والقانونية ، حيث لم تفرض عليهم أية أعباء اقتصادية أو ضرائب ، إلي جانب دخولهم ورواتبهم الكبيرة . وتكون الرومان الذين عاشوا في مصر من :

- الوالي : كان علي رأس الهرم الاجتماعي ، وكان يقيم في الإسكندرية . يساعده مجموعة من كبار الوظفين من الرومان أيضاً ، والذين تولوا كبرى المناصب في مصر وأهمها حكام المديريات ، والتي أقتصرت علي فئة الرومان فقط
- الجنود الرومان ، وهم جنود الحاميات الرومانية التي عاشت في مصر ويتراوح إجمالي عددهم بين 17 ألف و18 ألف ، وتضم الفرسان والمشاة
- الجنود المسرحون من الخدمة العسكرية وايتقروا في مصر ، وانتشروا في مدن وقرى مصر كلها ، وكانوا يشكلون أغلبية الرومان الذين عاشوا في الحقبة الرومانية .
- بعض المواطنون الذين قدموا من روما وقرروا الاقامة في مصر نظراً لغناها الاقتصادي ، كما انهم يحصولون فيها علي امتيازات أكثر من بلادهم الأصلية .

2: إغريق المدن الأربعة واليهود

شكلوا الطبقة الوسطى داخل المجتمع المصري ، حيث تمتعوا ببعض الامتيازات ، وأهمها لم يدفعوا ضريبة الرأس (الجزية) ، وسمح لهم بعمل مجالس شورى خاصة بهم لإدارة شئونهم الداخلية .

إغريق المدن الأربعة : المقصود بهم ، هم اليونانيون الذي كانوا يعيشون منذ العصر البطلمي داخل المدن الرئيسية ، وهي مدينة الإسكندرية ومدينة نقراطيس ومدينة بطلمية ، إلي جانب مدينة أنطونيوبوليس التي بنيت في العصر الروماني ، ولذلك يطلق عليهم مصطلح المدن الأربعة . وسكان هذه المدن فقط هم من كانوا يتمتعون بالامتيازات التي سبق ذكرها ، أما باقي اليونانيين الذين عاشوا في باقي مصر فكانوا يعاملون معاملة المصريين .

اليهود : انتشرت جماعات اليهود في مصر منذ العصر البطلمي ، حيث سمح لهم البطالمة ممارسة شعائرهم الدينية ، واستمروا في العصر الروماني أيضاً ، وكانوا يعملون بالتجارة والمعاملات المالية ، حيث كان يقترض منهم السكان بفوائد مالية ، وتمركز معظمهم في مدينة الاسكندرية ، حيث كانوا طوال العصر الروماني يتنازعون مع سكان المدينة .

قاموا بثورتين في العصر الروماني ، الأولى : عام 70 م ، وكان مركزها القدس ، والثانية ما بين عامي 115-117 م ، وكان مركزها مصر وانتشرت حتى القدس شرقاً وقورينائية غرباً ، ولم

تخمد إلي في عهد الامبراطور هادريان ، ومن نماذج الوثائق البردية لهذه الثورة ، وثيقة مؤرخة بـ 28 نوفمبر عام 117 م ، يطلب فيها أحد حكام المديريات أجازة من الوالي ، ويقول له : " أنني احتاج أجازة ستين يوماً ، لكي أرتب أموري ، إذ تدهورت أحوالي تماماً لغيابي الطويل ، وكذلك بسبب غارات اليهود الكفرة علي كل ما أملك في قرى مديرية هيرموبوليس ، كما أن مصالحي في عاصمة المديرية تتطلب وجودي شخصياً لإعادتها إلي نصابها ، وإذا وافقت علي هذا الطلب سيكون بقدوري أن أعود للقيام بواجبات وظيفتي بروح أفضل " .

3: المصريون

كل من كن يعيش في ربوع مصر وليس روماني أو من سكان المدن الأربعة السباق ذكرهم أو اليهود كان يعامل معاملة المصريين ، حيث كانت تفرض عليهم كافة الأعباء الضريبية وليست لهم أية حقوق قانونية ، حيث مثولوا قاع الهرم الاجتماعي في مصر ، يعيشون من الأجل خدمة الرومان ، ولذلك فرض عليهم الرومان قوانين صارمة تمنعهم من الاختلاط بالطبقات الأعلي ، حيث لم يكن يسمح لهم الزواج من الرومان أو سكان المدن الأربعة حتى لا تختل التركيبة الاجتماعية التي وضعوها ، وأصدروا في سبيل ذلك عدة قوانين ومن أهمها :

1- اذا تزوج مصري أو مصرية من سكان المدن الأربعة ، يتبع أولاده الفئة الأدنى ، ويصادر جزء من أملاكه .

2- إذا تزوجت مصرية من الجنود الرومان ، لا يحق لها الحصول علي الجنسية الرومانية بل وتخضع لبند مخالفة القوانين الطبقية .

3- لا يحق للسكندري أن يتزوج من مصرية

وبهذه التركيبة الاجتماعية عاشت مصر في العصر الروماني ، حيث لم يسمح لآي أحد من فئة سكانية أن يرقى إلي الفئة الأعلى إلا بقانون أو استئذان الامبراطور نفسه ، ولدينا وثيقة بردية ترجع إلي عام 100 م ، تعطينا صورة واضحة لهذا النظام الاجتماعي الصعب ، حيث طلب مواطن مصري أن يحصل علي الجنسية السكندرية عن طريق أحد النبلاء الرومان ، حيث كتب بليني الصغير ذلك الروماني النبيل وأحد رجال الدولة المرموقين إلى الامبراطور تراجان قائلا : " أنني أقدم لك يا سيدي جزيل شكري لمنحك كاتبي حربوقراط الجنسية الرومانية ، وقد ذكرني بعض الأفراد الذين لهم دراية أكثر مني في المجال القانوني بأنني كان يجب أن أحصل لحربوقراط علي الجنسية السكندرية أولاً ، لأنه مصري الأصل . ذلك فإنني أرجوكم منحه الجنسية السكندرية حتى يمكنه الاستفادة من منحتكم من الناحية القانونية " . وقد رد عليه الإمبراطور قائلاً : " حيث أنني أقتفي

أثر الأباطرة السابقين ، فإن سياستي تقضي بعدم التهاون في منح الجنسية السكندرية ، ولكن حيث أنك قد حصلت بالفعل علي الجنسية الرومانية لكاتبك حربوقراط ، لذا ينبغي عليك أن تخبرني عن الإقليم التبع له ، حتى يمكنني أن أكتب إلي صديق بومبيوس بلانتا والي مصر عن هذا الأمر " .

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن ، لماذا حرص الرومان علي هذه التركيبة الاجتماعية ولم يسمحوا بأية نغيرات ؟ .

كانت مصر بالنسبة للرومان ولاية تابعة لهم ، ومورد اقتصادي كبير ينعش الخزانة الرومانية بالمال والغلال ، وكانوا يحسبون الأموال والغلال التي تجبى من الناس ، ولذلك كانوا يخشوا أن ينتقل الآهالي من الطبقات الدنيا التي تدفع الضرائب إلي فئات أعلى لا تفرض عليهم هذه الضرائب ، وبالتالي تقل موارد روما من الولاية . ولذلك كانوا يمنعون منعاً باتاً الانتقال من طبقة إلي أخرى .

ثالثاً : النظام الاقتصادي

بقيت النظم الاقتصادية كما هي منذ العصر البطلمي ، وهي :

- الزراعة : أبقى الرومان علي الآراضي الزراعية بكل أنواعها الموروثة منذ العصر البطلمي ، غير أنهم امتلكوا أراض الملك البطلمي وحولوها إلي أراضي الدولة ، وبقيت ملكية المعابد والآفراد كما هي . كما حافظ الرومان علي أنواع المحاصيل التي كانت تزرع منذ العصر البطلمي
- الصناعة : ظلت الحرف والصناعات كما هي ، غير أن أن الرومان شجعوا إلي حد ما حرف النسيج من أجل توفير الملابس للجنود الرومان .

ولكن أهم ما استحدث في هذا المجال هو التوسع في الطوائف الحرفية (النقابات) ، حيث شملك كل أنواع الحرف ، مثل طائفة السباخين والصيادين وصانعي الطوب والبنائين والنساجين والكتبة والحلاقين وعمال الصباغة وغيرهم .

- التجارة : احتفظ الرومان بالتجارة الداخلية ، حيث مارس سكان مصر التجارة الداخلية بكل حرية ، واهتم الرومان بتحسين الطرق وتمهيدها وانشاء مناطق حراسة واستراحات للقوافل التجارية . أما التجارة الخارجية ، فكان يشرف عليها الرومان إشرافاً كاملاً ، حيث كانت الادارة الرومانية ترسل مندوب لها مع السفن التجارية في البحر المتوسط والأحمر .
- الضرائب : تعتبر رالضرائب هي أهم ما كان يسعى إلي الرومان في مصر ، ولذلك وضعوا نظام ضرائب في منتهى الدقة لم نسمع عنه في العالم القديم كله ، وذلك حتى يتمكنوا من تحصيل أية مبالغ من الاهالي لتورد إلي الدولة ، وهي كالآتي :

1- استحدثوا نظام الاحصائيات السكانية ، التي تحدد أعداد السكان وأعمارهم وأنواعهم وحتى العلامات المميزة لهم ، لكي يحددوا أعداد المستحق عليهم من ضرائب ومقدارها

2- فرضوا علي سكان مصر أكثر من 200 نوع من الضرائب ، وكان علي رأسها ضريبة القمح ، التي كانت تحصل من القرى وتجمع في الاسكندرية ومنها إلي روما ، وضريبة الرأس (الجزية) وكانت تجمع من كل رجل أو أمراة وصل سنه 14 سنة وحتى 60 سنة.

3- استحدثوا نظام الخدمات الالزامية ، وهي أعمال تفرض علي الأهالي بدون مقابل ، يؤدونها كخدمة لقريتهم أو مدينتهم ، مثل نظافة الطرق والترع والكشف علي المرضى وغيرها من الأعمال ، وهم بذلك يوفرون أجور الموظفين الذين يقومون بهذه الأعمال .

كل هذه الاجراءات أثقلت كاهل سكان مصر إلي الحد الذي جعلهم غير قادرين علي العيش أو توفير فنفقات حياتهم اليومية ، مما دفعهم إلي الفرار من قراهم وتحولوا إلي قطاع طرق أو متسولين داخل المدن الكبيرة .

رابعاُ : الحياة الدينية

أبقى الرومان علي الحياة الدينية في مصر ، حيث ظل المصريون يعبدون آلهتم المصرية واليونانيون يعبدون آلهتم اليونانية ، أما الرومان فقد عبدوا آلهتم الرومانية ، وسمحوا لكل من يعيش في مصر أن يعبد ما يراه من آلهة . ومن أهم المظاهر الدينية في العصر الفرعوني :

- استبدل الرومان عبادة الملوك البطالمة بعبادة الأباطرة الرومان ، حيث اعتبر المصريين الامبراطور هو وريث شرعي للملك الفرعوني والبطلمي
- كثرت أعمال السحر بشكل كبير ، حيث وافتنا الوثائق البردية بنماذج كثيرة من الأعمال السحرية التي استخدمها المصريين ، مثل أعمال المحبة وطرد الأرواح الشريرة وضد الأعداء والكائدين واللصوص والأحلام المخيفة ، ونقرأ في إحدى الوثائق البردية الآتي : " خذ طبقاُ من الذهب أو الفضة وأرسم عليه الرموز والكلمات السحرية التالية .... وبعد أن تجعله فعالاً ومؤثراً بهذه الكيفية عليك أن تحمله معك وأنت مطمأن القلب " .
- أهم متغير ديني في القرون الثلاثة الأولى الميلادية ، هو ظهور الديانة المسيحية ، وكان القديس مرقص هو الذي كتب أقدم إنجيل حوالي عام 65 ميلادي ، ومنذ دخول المسيحية مصر بدأت تنشر بشكل كبير ، وشكلت خطراً علي الرومان مما دفعهم إلي اضطهاد المسيحيين ، وبدأت أعمال الاضطهاد في السنة العاشرة من حكم الامبراطور سيفيروس (249-251م) حيث كان أول اضهاد لمسيحي مصر واشتد في الاسكندرية ، ثم تبعه

اضطهاد في عهد الامبراطور ديفيوس(249–251م) والذي كان يتعين علي الناس حمل شهادات تثبت بأنهم غير مسيحيين ، وما لبث دقلديانوس أن فاجأ المسيحية باضطهاد منظم دمرت أثناءه الكنائس ، وأرغم المسحيين علي تغيير دينهم ، حتى اعتبر عام 284 م عام الشهداء ، وظلت هذه الحال إلي أن تم الاعتراف بالمسيحية في القرن الرابع الميلادي .

ومن أقوال سولون عن تشريعاته السياسية : " أن من الصعب علي من يقوم بأعمال عظيمة أن يرضي الجميع "

أبو اليسر فرح : تاريخ مصر في عصري البطالمة والرومان ، عين للدرات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، القاهرة ، 2002

نشارلز الكسندر روبنصن : أثينا في عهد بركليس ، انيس فريحة ، مؤسسة فرنكلين للطبعاة والنشر ، بيروت ، 1966

ارنست باركر : النظرية السياسية عند اليونان ، ترجمة لويس اسكندر ،